الملخص

بعد النظر في الآيات وسياقاتها وجدناها قابلة لأن تتشكل لها خطة البحث من تمهيد ومبحثين.

أما التمهيد فقد تناولنا فيه لفظ (المكر) لغةً واصطلاحاً،وجاء في المبحث الأول :المكر في قصص الأنبياء، وعرضنا فيه المكر في قصة نوح وقصة موسى وقصة عيسى وقصة يوسف عليهم السلام، وأما المبحث الثاني الذي انعقد على دراسة مكر الكافرين فقد تناولنا فيه مكرهم بالنبي محمد ﷺ والذي حاولوا فيه استئصال دعوته والكيد له ولأصحابه، ليقودنا هذا إلى موضوع آخر هو مكر الله على سبيل المشاكلة، لأن الأُمة اليوم أحوج ما تكون متفهمة لهذه الفكرة كي يشتد عزمها وتشعر أن الله معها يدبر لها ويدافع عنها إن هي استجابت لله وللرسول ونصرت دينها.

Abstract

after considering the verses and their contexts ,We put the plan of this research that consists of preliminary and two chapter. In preliminary We tackle the word maker (cheating) in the language and idiomatically. In the first chapter We tackle cheating in the stories of the prophets and offered cheating in the story of Noah and the story of Moses and the story of Jesus and the story of Joseph peace be upon them, the second chapter We clarified cheating of the prophet Mohammad (Blessing and peace be upon him).Unbelievers tried to put the end of his message and harm his companions.

This matter lead us to anther subject which is Allah's punishment on the Unbelievers because the nation today needs this idea to support its determination.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فان الواقع الذي تعيشه الأُمة الإسلامية وما يحيط بها من دسائس وخداع، وما يحاك لها من مكايد وما يدبر لها من مكر، وما يقع عليها من نوازل، دفعنا للبحث عن هذه الحالات وما يشابهها وسبل معالجتها في القرآن الكريم. فكان اختيارنا لموضوع (المكر في القرآن الكريم).

جمعنا الآيات التي تناولت موضوع المكر، والبالغة ثمانٍ وعشرين آية ، ورد فيها (المكر)، وما يشتق منه ثلاثاً وأربعين مرة.

وبعد النظر في الآيات وسياقاتها وجدنا أنها قابلة لأن تتشكل لها خطة البحث من تمهيد ومبحثين.

أما التمهيد: فقد تناولنا فيه لفظ (المكر) لغةً واصطلاحاً، ودلالته في الاستعمال القرآني، وعلى الرغم من أن المعنى الاصطلاحي كما ذكره علماء الاصطلاحات مبني على استعمال اللفظ في القرآن الكريم إلا أننا آثرنا إفراد فصله في التمهيد لاستعماله في القرآن الكريم لكي يكون أكثر تفصيلاً وبياناً مع عرض الشواهد القرآنية.

أما المبحث الأول: فقد تناول المكر في قصص الأنبياء–عليهم السلام – وعرضنا فيه المكر في قصة نوح وقصة موسى وقصة عيسى وقصة يوسف –عليهم السلام –.

وأما المبحث الثاني: الذي انعقد على دراسة مكر الكافرين فقد تناولنا فيه مكرهم بالنبي محمد (ﷺ)والذي حاولوا من خلاله استئصال دعوته والكيد له ولأصحابه–رضي الله عنهم– ، ليقودنا هذا إلى موضوع آخر هو مكر الله على سبيل

المشاكلة، لأن الأُمة اليوم أحوج ما تكون متفهمة لهذه الفكرة كي يشتد عزمها وتشعر أن الله معها يدبر لها ويدافع عنها إن هي استجابت لله –عزوجل– وللرسول(ﷺ) ونصرت دينها.

وقد آثرنا أن تكون دراسة الملامح البلاغية والنكت اللغوية في أثناء تفسير الآيات في مواضعها من المباحث لكي نتجنب التكرار ولكي تتكامل الدراسة في الموضع الواحد.

وانتهى البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التي تمَّ التوصل إليها من خلال البحث والدراسة.

الباحثان

التمهيد

المكر من اللغة إلى الاصطلاح

المكر لغةً: الجذر اللغوي للفظ له أصلان أحدهما على حد ما ذكر ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) الاحتيال والخداع. والآخر: خَدَلَة الساق[1].

ونبه الليث على أن المكر ((احتيال في خفية))[2]. وفرق الأزهري بين الكيد والمكر فقال: ((سمعنا أن الكيد في الحرب حلال، والمكر في كل حال حرام))[3]. وفرق أبو هلال العسكري بين الكيد والمكر من حيث أن المكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر، إلا أن الكيد أقوى من المكر، والمكر تقدير ضرر الغير من غير أن يعلمه به في حين أن الكيد إيقاع المكروه بالغير قهراً سواء علم أو لا[4].

وبين الجوهري (ت ٣٩٥هـ) الصيغ المشتقة من الجذر المذكور آنفاً فقال: ((المكر الاحتيال والخديعة وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكار، والمكر أيضاً: المفردة. وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاختضب.

والمكور: ضرب من الشجر. قال العجاج[5]: ((فَحَط في عَلْقى وفي مُكور)).

الواحد مَكرُ: قال الكميت[6] يصف بقرة

تعاطى فراخ المكر طورا وتارة   تثير رخاماها وتعلق ضالها

وفراخ المكر: ثمره.

([1]) ينظر: مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحـ: عبد السلام هارون، دار الفكر: ٣٤٥/٥.

([2]) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحـ: عبد السلام هارون، دار الصادق: ٢٤٠/١٠، وينظر لسان العرب، أبن منظور (ت ٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م: ١٩٥/٢٣.

([3]) م.ن الصفحة نفسها.

([4]) ينظر: الفروق اللغوية/٢٧٥.

([5]) ديوان العجاج (رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي) تحـ: د. عزة حسن، مكتبة دار الشروق، سوريا، ص٢٣٣.

([6]) ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحـ: د. محمد نبيل طريفي، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٢٣٧.

((والممكورة: المطوية الخلق من النساء يقال: امرأة ممكورة الساقين أي خدلاء))[١]

ومن تصاريف المكر قولهم:

((مكر به وماكره، وتماكروا. وهو ماكر ومكار))[٢]. والفعل مكر من باب قَتَلَ: خَدَعَ، واسم الفاعل منه ماكر وأمكر بالألف لغةً. وإذا أُسند المكر إلى الله فهو بمعنى جازى على المكر، وسمى الجزاء مكراً كما سمى جزاء السيئة سيئة مجازاً على سبيل مقابلة اللفظ في اللفظ[٣].

ومن كل ذلك نجد أن المعنى اللغوي للمكر دار على معنى الحيلة والخديعة في خفية وإذا أُسند إلى الله – عزوجل– فهو يدل على الجزاء على المكر، والله أعلم.

المكر اصطلاحاً: إن المعنى الاصطلاحي للفظ المكر الذي ورد في المصادر المعنية بالاصطلاحات مأخوذ من الاستعمال القرآني وهو ما سنفصل القول فيه إذا شاء الله فيما نستقبل وهنا نذكره بإيجاز، فقد ذهب التهانوري إلى أن مكر الله ((إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك قال علي رضي الله عنه: ((من وسع دنياه ولم يعلم أنه مُكر به فهو مخدوع عن عقله))[٤] وفي موضع آخر قال: ((كل مكر في القرآن فهو عمل))[٥]. أي: أن معنى المكر في الاستعمال القرآني يشير إلى أنه خداع وحيلة ينجزان من خلال فعل وعمل يقوم به الماكر. وفرق بين الكيد والمكر فقال: ((الكيد هو أقوى من المكر، والشاهد أنه يتعدى بنفسه والمكر بحرف والذي يتعدى بنفسه

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحـ: أحمد عبد الغفور عطار، ط٣، (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م)، دار العلم للملايين: ٨١٩/٢.

(٢) أساس البلاغة، محمود بن محمد عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م، ص٦٠٠.

(٣) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، (ت ٧٧٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت: ٥٧٧/٢.

(٤) الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) تحـ: د. عدنان درويش ومحمد المصري، المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م، ص٧٧١.

(٥) المصدر نفسه: ٨٠٣.

أقوى)). وقوله تعالى: { فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا }[١]. فلتضمنه معنى فعل يتعدى به تأكيداً وهو (يحتال) أي فيحتال لإهلاكك حيلة))[٢].

وفرق أبو هلال العسكري بين المكر والحيلة من حيث أن من الحيلة ما ليس بمكر وهو أن يقدر نفع الغير لا من وجهه فيسمى ذلك حيلة مع كونه نفعاً، والمكر لا يكون نفعاً. وفرق آخر هو أن المكر يقدر ضرر الغير من غير أن يعلم به وسواء كان من وجهه أو لا والحيلة لا تكون إلا من غير وجهه[٣].

ووجه الربط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي أنه لما كان مكر الله بالعبد دائراً على إمهاله له وتمكينه من أعراض الدنيا ينخدع بها ويأتيه أجله فكأنه احتيل عليه خفية.

المكر في الاستعمال القرآني: إذا كان في أصل اللغة إخفاء الحيلة فإن هذا المعنى ورد في القرآن الكريم وورد غيره في ضروب الاستعمال القرآني ففي معنى الاحتيال ورد قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾[٤]. ((أي احتيال وخداع للناس، وذلك قولهم في القرآن أنه شعر وسحر أساطير الأولين ليصدوا غيرهم عنهم))[٥].

وورد لفظ المكر مسنداً إلى الله – عز وجل – مقابلاً لمكر البشر نحو قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ﴾ [٦]. ((أي يجازيهم على مكرهم))[٧]. فهو بمعنى المجازاة.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥.

(٢) الكليات/٧٧١.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية/ ٢٧٥.

(٤) سورة يونس، الآية ٢١.

(٥) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) تحـ: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م: ١٠٣/٤.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٧) عمدة الحفاظ: ١٠٣/٤.

ومن الاستعمالات للفظ قوله تعالى: ﴿قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ (١). ((أي أقدر على تحصيل المكروه لهم))(٢). فالمعنى إذاً هو تحصيل المكروه بأعلى قدرة.

وورد اللفظ باستعمال مجازي نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (٣). إذاً ((أضاف الحدث لظرفه الواقع فيه أي مكر في الليل، والإضافة تكون بمعنى في. والأحسن أن تكون على المبالغة، جعل الظرفين ماكرين مبالغة))(٤). ومن استعمالات استعمالات المكر في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ ﴾(٥). فالمكر هنا ((صرف الغير عما يقصده بحيلة من الحيل وهو ضربان محمود وهو أن يتحرى به فعل الجميل))(٦). ومنه الآية المذكورة آنفاً.

---

(١) سورة يونس، الآية ٢١.

(٢) عمدة الحفاظ: ١٠٣/٤.

(٣) سورة سبأ، الآية ٣٣.

(٤) عمدة الحفاظ: ١٠٣/٤.

(٥) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٦) عمدة الحفاظ، ١٠٤/٤.

المبحث الأول

المكر في قصص الأنبياء-عليهم السلام-

يمثل القصص القرآني معرضاً للأحداث التي تصور دعوة الأنبياء والرسل- عليهم السلام- أقوامهم إلى عبادة الله وتوحيده، وبرزت المعارضة للدعوة والوقوف بوجه الرسل-عليهم السلام-من لدن أئمة الكفر والشرك فحاولوا الكيد للرسل والأنبياء-عليهم السلام- والمكر بالدعوة والدعاة. ومن هنا تأتي أهمية دراسة موضوع المكر في القصص القرآني. ونحاول أن نلم بالموضوع من خلال أربع قصص رئيسة هي قصة نوح وقصة موسى وقصة عيسى وقصة يوسف- عليهم السلام-. لتشكل بحثاً يتناول المكر فيها.

اولاً

المكر في قصة نوح عليه السلام

حاول نبي الله نوح -عليه السلام- أن يوصل دعوته إلى أذان قومه وقلوبهم وعقولهم بأساليب شتى ووسائل متنوعة في إطار صبر جميل وجهد متواصل مدة تسعمائة وخمسين سنة بيد أن النتيجة المتواضعة التي رآها ألجأته إلى تقديم حسابه وبث شكواه إلى ربه تبارك وتعالى في بيان مفصل ولهجة مؤثرة مشيراً إلى عصيان قومه بعد بذل جهده كله وعنائه الطويل، وتوجيهه الدائم وتنويره وإنذاره ووعده إياهم بالمال والبنين والرخاء وبعد هذا كله كان العصيان والسير وراء ساداتهم وكبرائهم الضالين المضلين الذين خدعوا أتباعهم بما يملكون من مظاهر القوة والسلطان والجاه والمال التي ركنوا إليها فباؤوا بالشقاء والخسران.

إن هؤلاء المتنفذين ذوي السلطان لم يكتفوا بضلالهم بل مكروا مكراً متناهياً كبيراً لإبطال دعوة نوح - عليه السلام - وإغلاق الطريق في وصول الدعوة إلى قلوب الناس ومكروا بتزيين الكفر وترويض الناس على الاستمساك بالأصنام وتهييج الحمية في قلوبهم لهذه الأصنام وبهذا المكر الخبيث أضلوا الناس وأبقوهم على

كفرهم لينقادوا إليهم وإلى أهوائهم وهذا هو شأن دعاة الباطل في كل زمان يصدون عن دعوة الله بالمكر والكيد[١].

وسورة نوح- عليه السلام - مفعمة بهذه المعاني بيد أننا نقف عند قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالًا﴾[٢].

وقد اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: (ومكروا مكراً كُباراً) فمنهم من قال: ((يعني مكراً عظيماً، ويُقال مكروا مكراً كبيراً، ويعني قالوا كلمة الشرك، والكبير والكبار بمعنى واحد))[٣]. ومنهم من قال المكر: ((السعي بالفساد، وذلك يمنع الرؤساء أتباعهم في الإيمان بنوح- عليه السلام -))[٤].

والفعل (مكروا) معطوف على (لم يزده)، وجمع الضمير راجع إلى (من) لأنه في معنى الجمع، والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه... والكُبار: الكبر من الكبير، والكُبَّار بالتشديد أكبر من الكُبار[٥].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التحاث العربي، بيروت، لبنان، ط٥، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م: ٨/٣٠٤-٣٠٥.

(٢) سورة نوح، الآيات: ٢١-٢٤.

(٣) بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٥هـ) تحـ: علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود. د. زكريا عبد المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م: ٣/٤٠٨.

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ) تحـ: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود علي محمد معوض، د. حمد محمد حيدة، د. أحمد عبد الغني الجمل، د. عبدالرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م: ٤/٣٥٩.

(٥) الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تحـ: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م: ٤/٦٠٧، إرشاد العقل المسلم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ)، دار إحياء التحاث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م: ٥/٤٠٠.

وكبَّاراً ((بالتشديد للمبالغة... واختلف في مكرهم ما هو فقيل: تحريشهم سفلتهم على قتل نوح. وقيل هو تعزيرهم الناس بما أوتوا الدنيا والولد. حتى قال الضعفة: لولا إنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم، وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقيل مكرهم كفرهم، وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: {وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالًا}))[١].

ويُلحظ أنه لما كان رأس الخيرات هو الإرشاد إلى التوحيد وهو ما تمثل في دعوة نوح عليه السلام ((فنقيضه وهو الدعوة إلى الشرك يكون أعظم الكبائر وأفظع أنواع المكر. وإنّما سُمِّي مكراً لأنّهم دلّسوا عليهم بأنّه دين أبائكم والآباء أعرف من الأبناء، وبأن هذه الأصنام تعطيكم الخيرات والمنافع وأنها شفعاؤكم ثم خصوا الأصنام الخمسة بالذكر لأنها كانت عندهم أكبر))[٢]. ومما قيل في المكر فضلاً عن الآراء المذكورة آنفاً قول الكلبي: ((هو ما جعلوه لله من المصاحبة والولد))[٣].

وأقرب الآراء الذي أوجزه الطاهر بن عاشور – رحمه الله – في بيان معنى المكر إذ قال: ((والمكر: إخفاء العمل أو الرأي الذي يراد به ضر الغير، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضر، قيل: كانوا يدبرون الحيلة على قتل نوح– عليه السلام – وتحريش الناس على أذاه وأذى أتباعه))[٤].

ثانياً

المكر في قصة يوسف عليه السلام

اكتنفت قصة يوسف عليه السلام أنواعاً من المكر والكيد الذي عانى منه يوسف عليه السلام ويمكن أن نلمح نوعين من المكر:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٥١هـ)، دار إحياء التحاث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م، ط٢: ٣٠٧/١٨، تحـ: أحمد عبد العليم البردوني.

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري (ت ٧٢٨هـ)، تحـ: الشيخ زكريا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م، ٦/٣٦٤-٣٦٥.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت (١٢٥٠هـ)، تحـ: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م: ٥/٣٧٤.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار للنشر والتوزيع، تونس (د.ت): ٢٠٧/١٤.

الأول: متمثل في مكر أخوة يوسف به وكيدهم له.

والثاني: في مكر امرأة العزيز المتمثل بمراودتها له عن نفسه ومكر النسوة اللاتي دعتهن ليكن شاهدات على أعذارهن لها في مواردتها. وتفعيل ذلك واضح في قوله تعالى في خاتمة السورة التي أشارت إلى جملة المكر الذي أحاط بيوسف- عليه السلام -، قال الله تعالى: { ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ }[١]. فهذا الختام يتسق مع مفتتح السورة التي تشير إلى أن هذه القصة هي وحي من الله – عز وجل – لنبيه محمد (ﷺ) بقوله: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }[٢]. ويتسق مع مكيدة الأخوة ليوسف عليه السلام وذلك بقوله تعالى: {إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }[٣]. ليظهر المكر والكيد في تخطيطهم للتخلص من يوسف عليه السلام بقتله أو طرحه في الأرض أو إلقائه في الجب وهكذا كان، بيد أن الله سبحانه وتعالى أبطل مكرهم برعايته له وحفظه إياه[٤].

وقد اختلف المفسرون في مكر النسوة فقد ذكر الواحدي (ت ٤٦٨هـ) نقلاً عن ابن إسحاق أن مكرهن ((يعني كيدهن وذلك أنهن إنما قلن ذلك مكراً بها لتريهن يوسفعليه السلام لما كان بلغهن من حسنه وجماله))[٥]. وذلك قلن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ظلال مبين فقولهن هذا هو المكر ليكون سبباً في إثارتها فتدعوهن ليرين جمال يوسف عليه السلام فيعذرنها.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٤) ينظر في ظلال القرآن، (ص٦٦٠-٦٦١).

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٦١٠/٢، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٤).

وأوضح الزمخشري ذلك بقوله في تفسيره قوله تعالى: ((بمكرهن)) أي: ((باغتيابهنَّ وسوء قالتهن، وقولهن، امرأة العزيز. عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، ومن الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها))(١).

وذكر ابن الجوزي قولين في معنى مكر النسوة: ((أحدهما أنه قولهن وعيبهن لها قاله ابن عباس، وقتادة والسدي وابن قتيبة. قال الزجاج: وإنما سمى هذا القول مكراً لأنها كانت اطلعتهن على أمرها وستكتمتهن فمكرن وأفشين سرها. والثاني أنه مكر حقيقة وإنما قلن ذلك مكراً بها لتريهن يوسف، قاله ابن إسحاق))(٢).

وممن أورد الرأيين المذكورين آنفاً نظام الدين النيسابوري وعلل إطلاق لفظ المكر على اغتيابهن بقوله: ((وإنما حسن التعبير عن الاغتياب بالمكر لاشتراكهما في الإخفاء. وقيل التمست منهن كتمان سرها فأفشينه فسمي مكراً))(٣).

وقريب من التعليل الأول الذي ذكره النيسابوري ورد عن البقاعي فقال: ((وكأنهن أردن لهذا الكلام أن يتأثر عنه ما فعلت امرأة العزيز ليرينه فلذلك سماه مكراً))(٤).

---

(١) الكشاف: ٤٤٥/٢.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: ٥٦٥/٤، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت ٥٩٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٨٢/٨، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٦هـ-١٩٩٦م).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣٤/٤، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

وأوجز الإمام محمد أبو زهرة تعليل تسمية قولهن مكراً بالقول ((لأنهن كن يشعنه، وكأنه تدبير السوء، ولأن بعضهن علمنه من جانبها فما كتمنا لها سراً ويتبادلن ذلك وكأنه أمر يدبر، ولذلك سمي مكراً))[١].

أما مكر أخوة يوسف به فإنه لا يخرج عن معنى الكيد به سراً. أي: ((يبغون له الغوائل))[٢]. وذكر البقاعي في قوله تعالى: (وهم يمكرون): ((أي يدبرون الأذى في خفية من المكر وهو القتل))[٣].

ونلحظ أن الشوكاني قد ذكر رأيين في عود الضمير الذي وقع عليه فعل المكر في قوله فقال: ((يمكرون به أي بيوسف في هذا الفعل الذي فعله به ويبغونه الغوائل، وقيل سالضمير ليعقوب، أي يمكرون بيعقوب حين جاءه بقميص يوسف ملطخاً بالدم، أكله الذئب))[٤].

والبادي لنا أن حذف الضمير الواقع عليه فعل المكر في قوله تعالى: ((وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)) مقصود ليشمل المكر السيئ على أخيهم وعلى أبيهم قال الإمام محمد أبو زهرة: ((ويقال أجمع أمره إذا اعتزمه الأمر جازماً من غير فكاك وهم يدبرون بمكر شيءٍ على أخيهم وعلى أبيهم))(٦) .

ثالثاً

المكر في قصة موسى عليه السلام

تتضمن قصة موسى مع عليه السلام فرعون وملئه مواجهتهم بربوبية الله بالعالمين وما أثارت هذه المواجهة من إنذار فرعون بتجريده من سطوته وجبروته مما أدى إلى رد دعوة موسى عليه السلام بأنها سحر وأنه سيتحداه بإجراء مباراة مع السحرة فلما جرت المباراة وغلب الحق الباطل وانكفأ سحر السحرة سجدوا لله رب العالمين مما

---

(١) زهرة التفاسير: ١٩/٧-٣٨، محمد بن زهرة، المتوفى (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) الكشاف: ٤٨٨/٢.

(٣) نظم الدرر، ١٠٦/٤.

(٤) فتح القدير: ٧١/٣.

(٥) زهرة التفاسير: ٣٨٦٦/٧.

دفع فرعون إلى أن يعد ذلك مكراً مكره السحرة مع موسى عليه السلام فتوعد السحرة بالموت والتصليب في جذوع الشجر[١]. إن هذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام ورد فيها مفهوم المكر الذي نحاول أن نتتبعه من خلال الآيات الكريمة التي تناولت هذا الموضوع.

فنلحظ أن لفظ المكر ورد في سياق حدث تحدي السحرة لموسى عليه السلام وظهور المعجزة على يديه مما دفع السحرة إلى إعلان إيمانهم بالله فأدى ذلك إلى إدعاء فرعون بأن هذه مكر مكروه مع موسى والآيات التي تتحدث عن ذلك هي قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ ۞وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ ۞رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۞قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }[٢].

فالمكر يعني ((صنعاً صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة))[٣]. وفي سياق الحدث نفسه ورد اللفظ في سورة الأعراف في قوله تعالى: { قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }[٤].

والمعنى ((إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل وكان هذا الكلام من فرعون تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان))[٥].

ومن المفسرين من يبين أن المكر هو المواطأة فقد قال القرطبي في تفسير الآية:

---

(١) ينظر في ظلال القرآن، المجلد الثالث/ ٥٩٥-٦٠٦.

(٢) سورة الأعراف، الآيات (١١٧-١٢٣).

(٣) بحر العلوم: ١/٥٦١.

(٤) سورة الأعراف، الآيات (١٢٣-١٢٤).

(٥) الكشاف: ٢/١٣٦.

((إن جرت بينكم وبينه مواطأة في هذا لتستولوا على مصر، أي كان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء))(١).

إن هذا الحوار بين فرعون والسحرة يكشف عن الشخصية الطاغوتية لفرعون، فكان ((طاغوته قد سول له ملك قلوبهم وألسنتهم فلا تتحرك إلا بإذنه، وقد رأينا ذلك من فرعون دونه عقلاً، وفوقه طغياناً. ولم يذهب إلى نفسه أنه حق أدركوه وإيماناً صدقوا به موسى وهارون، بل حكم على أساس من وهمه أنه مؤامرة عليه، وهو الذي اصطفاهم واختارهم من بين رعيته، وهم مختارون من الشعب فموه على الشعب بباطله أنها مؤامرة عليه وعلى الشعب فقال: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}أي لتعرضوا على أهلها سلطاناً غير سلطانها، فتفقد استقلالها، ولا تكون لها أرضها، ردف ذلك بالتهديد الشديد والعذاب العتيد قال: (فسوف تعلمون) أي ينزل بكم عذاباً تعلمونه بالعيان لا بالبيان (وسوف) هنا لتأكيد الكلام))(٢).

وورد لفظ المكر أيضاً في قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۞ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الأخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۞ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۞ تَدْعُونَنِي لأكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۞ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الأخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۞ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }(٣) وهو في سياق حوار مؤمن آل فرعون مع قومه حينما دعاهم إلى إتباع الهدى وسبيل الرشاد وأن هذه الدنيا متاع زائل وأن الآخرة هي دار القرار وأن الإنسان سيجزى بما عمل فإما إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦/٧.

(٢) زهرة التفاسير: ٢٩٢٧/٦.

(٣) سورة غافر، الآيات: ٣٨-٤٤.

النار وأما إلى جنة يرزق فيها بغير حساب وفي الوقت الذي يدعو فيه قومه إلى النجاة يدعونه إلى النار والكفر بالله والإشراك به. في حين يدعوهم إلى العزيز الغفار ويذكرهم بأن مرد الجميع إلى الله (يفوض أمره إلى الله وهو البصير بالعباد). فتأتي آية تعقب هذا الحوار وهي قوله تعالى: { فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ }(١).

فالوقاية حفظ مؤمن آل فرعون مما يؤذيه ويضره مما أرادوا به من الشر(٢). فقوله عز وجل فوقاه ((مؤذن بأن أضمروا مكراً به. وتسميته مكراً مؤذن بأنهم لم يشعروه به وأن الله تكفل بوقايته لأنه فوض أمره إليه. والمعنى فأنجاه الله فيجوز أن يكون نجى مع موسى وبني إسرائيل فخرج معه، ويجوز أن يكون فر من فرعون ولم يعثروا عليه))(٣).

ويلحظ أن القرآن استعمل (ما) المصدرية مع الفصل الماضي (ما مكروا) والمعنى سيئات مكرهم، وأضاف كلمة سيئات إلى المصدر وهذا النوع من الإضافة يسمى إضافة بيانية وهي هنا في قوة إضافة الصفة إلى الموصوف لأن المكر سيء، ومما ينبغي الإشارة إليه جميع السيئات باعتبار تعدد أنواع المكر التي بيتوها(٤).

رابعاً

المكر في قصة عيسى عليه السلام

ركزت قصة عيسى عليه السلام التي ورد ذكرها في سورة آل عمران على قضية أساسية هي قضية التوحيد ونفي فكرة الولد والشريك وبينت زيف هذه الشبهة وأكدت بشرية المسيح عليه السلام وأنه واحد من الرسل شأنه شأنهم وفسرت الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته كما أكدت القصة أن حقيقة الدين هو الإسلام والإسلام هو الإتباع

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٥.

(٢) ينظر الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٤/١٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٤/١٥٧.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/١٥٧.

والاستسلام وأن كل شريعة أتى بها الأنبياء إنما هي إقرار لمنهج الله وبيان الحلال والحرام ومن هنا ينشأ من يصار في رسالة الأنبياء ويرفض الإتباع ويعكف على منهج الكفر ويظهر من ينصر الله ودين الله بإتباعه الأنبياء وهذا الأمر حصل مع عيسى عليه السلام(١).

والذي يهمنا من قصة عيسى عليه السلام خاتمتها التي تبين مكر بني إسرائيل بعيسى عليه السلام فيقول الله عز وجل: { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۞ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }(٢).

وتفسير قوله تعالى: (ومكروا ومكر الله) أنه نزل في شأن عيسى عليه السلام إذ أراد اليهود قتله (فدخل بيتاً فيه كوَّة)(٣). وقد أيده الله تبارك وتعالى بجبريل عليه السلام فرفعه من الكوَّة إلى السماء فدخل عليه رجل منهم ليقتله، فألقى الله على ذلك الرجل شبه عيسى ابن مريم. فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول: ما في البيت أحد فقتلوه وهم يرونه أنه عيسى، فذلك قوله (ومكروا ومكر الله) والمكر من الله استدراج، لا على مكر المخلوقين(٤).

وقد ذهب إلى هذا الرأي غير واحد من المفسرين كالزمخشري(٥)، والقرطبي(٦). والذي نقل عن الزجاج ((قوله مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء))(٧). ومن أقوال المفسرين في تفسير المكر في هذا الموضوع من خلال ما

---

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٥٧٤/١-٥٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٤-٥٥.

(٣) الكوَّة: بضم الكاف وفتحها وهي الشعب في الحائط.

(٤) ينظر معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط٣، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م): ٢١٨/١.

(٥) ينظر الكشاف: ٣٠٩/١.

(٦) ينظر الجامع لأحكام القرآن: ٩٨/٤.

(٧)الجامع لأحكام القرآن: ٩٨/٤.

نقل عن التابعين: ((أخرج ابن جرير عن السدي قال: إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين))[١].

والبادي لنا أن المكر من الله هو استدراج لا على مكر المخلوقين وهو ما ذهب إليه الزمخشري وغيره والله أعلم.

ولما كان القرآن يفسر بعضه بعضاً فإن الضمير في (مكروا) عائد إلى الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل وذلك واضح في قوله تعالى من سورة الصف: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصارُ اللَّهِ فَآَمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ}[٢].

والمكر فعل يُقصد به ضر أحد في هيئة تخفى عليه أو تلبيس فعل الإضرار بصورة النفع والمراد هنا تدبير اليهود لأخذ المسيح، وسعيهم لدى ولاة الأمور ليمكنهم من قتله. ومكر الله بهم هو تمثيل لإخفاق الله تعالى مساعيهم في حال ظنهم أن قد نجحت مساعيهم وهو هنا مشاكلة كما في قوله: (أفأمنوا مكر الله) في سورة الأعراف ومعنى (والله خير الماكرين) أي أقوالهم عند إرادة مقابلة مكره بخذلانه إياهم. ويجوز أن يكون معنى خير الماكرين: إن الإملاء والاستدراج الذي قدره الفجار والجبابرة والمنافقون الشبيه بالمكر في أنه حسن الظاهر سيء العاقبة هو ضر محض لا يترتب عليه إلا الإصلاح العام وإن كان يؤذي شخصاً أو أشخاصاً فهو من هذه الجهة مجرد ما في المكر من القبح [٣].

وذهب سيد قطب إلى تعداد أنواع المكر الذي مكره اليهود بعيسى عليه السلام فقال هو: ((مكر طويل عريض فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة أُمه مع يوسف النجار خطيبها التي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل، وقد اتهمه بالكذب والشعوذة ووشوا به إلى الحاكم الروماني (بيلاطس) ودعوا أنه مُهَيج يدعوا الجماهير للانشقاق على الحكومة

---

(١) فتح القدير: ١/٤٣٥.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.

(٣) ينظر التحرير والتنوير: ٣/٢٥٦-٢٥٧.

وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتوعوا عقابه بأيديهم، لأنه لم يجرؤ وهو وثني على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل ثم يجسد عليه ريبةً وهذا قليل من كثير))(١).

المبحث الثاني

مكر الكافرين

من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم وبينها في مواضع كثيرة طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان إذ أن الإيمان ينشأ بفعل العقيدة فيطلق فيه نوراً يبدد فيه ظلمات الكفر ليكون الإيمان في النفس نماءً وحياةً. أما الكفر فهو موت وانقطاع عن الحياة الحقيقية وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله. الإيمان اتصال بالله واستجابة لكل مقومات الحياة. والكفر حجاب لروح عن الاستشراف فهو ظلمة وختم على الجوارح والمشاعر. وفي الوقت الذي يزين فيه الشيطان للكافرين أعمالهم فلا يميزون الهدى من الظلال فيتحرك للإفساد في الأرض يكون المؤمن متصلاً بالله مستجيبا لأمره ولرسالته التي أرسلها إلى الأنبياء والمرسلين(٢).

ومن المشاهد القرآنية التي تصور هذه الحقيقة قوله تعالى في سورة الأنعام: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}(٣). فنلمح من هذه الآيات الكريمة أنه لما كانت عداوة الكافرين للنبي معلومة. وإن مكانته عليه الصلاة والسلام تتميز بجلالة المنصب وشرف العشيرة وكثرة الأقارب مما يؤدي إلى أن لا يتمادى على هذه المكانة إلا جاهل مطموس البصيرة مزين له قبيح أعماله. عطف تعالى على تزين الكافرين قوله: (وكذلك) أي مثلما زين للكافرين سوء أعمالهم فكان

---

(١) في ظلال القرآن: ٥٩٥/١.

(٢) ينظر في ظلال القرآن: ٣٧٣/٣-٣٧٦.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٢٢-١٢٣.

أكابر أهل مكة يمكرون فيتبع غيرهم مكرهم (جعلنا أي بما لنا من العظمة في إقامة الأسباب لما يعلي كلمة الإنسان أو يجعله حقير الشأن (في كل قرية) إلى بلد جامع ولما كان الكبر مختلف الأنواع باختلاف أشخاص مجرمين طابق بأفعال التفضيل المقصودين لها في الجمع على إحدى اللغتين وعمد بصيغة منتهى الجمع دلالة على تناهيهم في الكثرة فقال: (أكابرا مجرميها) أي القاطعين لما ينبغي أن يوصل وكان الأكابر أقدر على إنفاذ المكر وترويج الأباطيل لأغلب الناس من السعي في رضاهم طمعاً فيما عندهم ليمكروا فيها أي يخدع أحبارهم ويغروهم بما يلبسون عليهم من الأمور حتى يتبعوهم فيعادوا لهم ضرب الله والحال أنهم ما يمكرون إلا بأنفسهم لأن عملهم بالمكر وبال عليهم موبق لهم، [1]. ومكر الكافرين المنهزم أمام مكر الله وتدبيره عبرت عنه مقولة الدعاء التي تجعل تدميرهم في تدبيرهم. ومكر الكافرين هذا تعرض له رسول الله ﷺ فكانت نتيجة مكرهم كما أشارت الآية الكريمة: { سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ }[2]. وهو ما سنتحدث عنه فيما يأتي.

أولاً

مكر الكافرين بالنبي ﷺ

وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن مكر الكافرين بالنبي ﷺ ومنها قوله تعالى في سورة الأنفال: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[3]. فهذه الآيات الكريمة هي(أخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي (ﷺ) في دار الندوة، فأجتمع رأيهم على قتله فبيتوه، ورصدوه على باب منزله طوال ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يعمى

(١)ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢: ٧٠٨/٧٠٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية (٣٠)

عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم علي فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجي. الخبر مشهور في السيرة وغيرها ومضى(ليثبتوك) ليحبسوك، يقال: أثبته إذا حبسته وقال قتادة (ليثبتوك) وثاقا. وعنه أيضا وعبد الله بن كثير ليسجنوك أبان بن تغلب وأبو حاكم ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد

والمكر التدبير في الأمر في خفية والمكر من الله هو جزاءهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون) [١]. وقال أبن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) (والمكر من الخلق خبث وخداع ومن الله عز وجل المجازاة فسمي باسم ذلك لأنه مجازاة عليه)[٢]. ومن صور الكيد التي تعرض لها النبي ﷺ هو ما لقاه من أصحاب العقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود إذ أمره الله سبحانه وتعالى بجدال المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن وإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين فإما أن يعاقبهم بمثل اعتدوا أو أن يعفوا ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل إذ العاقبة للمتقين المحسنين وإن لا يحزن على من لا يهتدي ولا يضيق صدره بمكرهم[٣] . وفي ذلك يقول الله عز وجل:{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ۞وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ۞ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }[٤]. ومما يلقي ضوءاً على هذه الآيات الكريمة ما روي أن المشركين (مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنضلة بن الراهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به وروي فرائه مبقور البطن فقال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٩٧/٧

(٢) زاد المسير : ٣٢١/١

(٣) ينظر في ظلال القرآن: ٢٩١/٥

(٤) النحل ١٢٥-١٢٨

أما والذي أحلف به لأن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت الاية السابقة فكفر عن يمينه وكف عما أراده ولا خلاف في تحريم لمثله)[١].

وقد وجه الزمخشري قوله تعالى: (ولا تحزن عليهم) توجيهين:

الأول: أي لا تحزن على الكافرين كقوله:(فلا تأس على القوم الكافرين) [٢] .

والثاني: لا تحزن على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون ولا يضيق صدرك من مكرهم[٣] . وقد خُصَّ النبي ﷺ بالأمر بالصبر (للإشارة إلى أن مقامه أعلى فهو بالتزام الصبر أولى أخذاً بالعزيمة بعد أن رخص لهم في المعاقبة)[٤]. كما أن الآية تشير من جهة أخرى إلا أن صبر النبي ﷺ صبرٌ عظيم، لقيَّ من أذى المشركين أشد ما لقيه المسلمون عامة فلذا قال وما صبرك إلا بالله كما وجهه أن لا يضيق صدرك من مكرهم إذ كانوا يعاملون النبي ﷺ مرةً بالأذى علناً ومرة بالإعراض عن الاستماع لدعوته وأخرى بالكيد والمكر له وهو تدبير الأذى له في خفاء فهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسببة لها[٥].

وقد ورد نهي الله – سبحانه وتعالى – للنبي ﷺ عن الضيق بسبب مكر الكافرين في سورة النمل أيضاً: { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }[٦]. وقد جاء هذا النهي في سياق الآيات التي تتحدث عن شك المشركين من البعث وأنهم عميان عن النظر في دلائله فبين غاية شبههم وهي مجرد استبعاد إحياء الموتى بعد صيرورتهم تراباً فاستنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن صاروا تراباً وأنكروا هذا الأمر وإن تكرر على ألسنة الأنبياء قبل محمد عليه الصلاة السلام وعدوا ذلك ضرباً من الأساطير والأكاذيب الملفقة لكنه أمرهم أن يشاهدوا

---

(١) الكشاف: ٦١٩/٢- ٦٢٠

(٢) سورة المائدة: ٦٨

(٣) ينظر الكشاف: ٦٢٠/٢، وجواهر الحسان في تفسير القرآن أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المتوفى (٨٧٦هـ) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان:٣٢٧/٢.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٣٦/١٤-٣٣٧.

(٥) ينظر المصدر نفسه: ٣٣٧/١٤.

(٦) سورة النمل، الآية: ٧٠.

أثار من سبق بالبصر فإن في المشاهدة زيادة الاعتبار بل من المفسرين من قال: انظروا ببصائركم وعقولكم إلى عاقبة من كذب المرسلين.

ومع كل هذا التوجيه أصروا على الكفر مما أصاب النبي ﷺ بالحرج وضيق الصدر من مكرهم هذا(١). وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۞ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}(٢).

ومن المشاهد التي تتحدث عن الكافرين الذين يمكرون السيئات بالنبي ﷺ ما ورد في التعقيب عن تكذيبهم له واغتروا بالحياة الدنيا وإتباعهم سبيل الشيطان الذي زين لهم أعمالهم فضلوا وأضلوا فلم يعوا ما في الكون من آيات يأتي قول الله عز وجل تعقيباً على كل ذلك:
{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ }(٣).

فيمكرون هنا ((مضمونه معنى يدبرون ولكنه عبر بها لقلة استعمالها في السور فهؤلاء لهم عذاب شديد فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور فلا يحيا ولا يثمر من البواري ومن البوران سواء وذلك تنسيقاً مع إحياء الأرض وإثمارها في الآية السابقة. والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلباً للعزة الكاذبة والغلبة الموهومة وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء وأنهم أعزاء وأنهم أقوياء.

ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه وبهما تكون العزة بمعناها الواسع الشامل. فأما المكر السيء قولاً وعملاً فليس سبيلاً إلى العزة ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان إلى أن نهايته إلى

(١) ينظر فتح القدير: ٤/١٨٥.
(٢) سورة النمل، الآيات: ٦٧-٧٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.

البوار وإلى العذاب الشديد وعد الله لا يخلف الله وعده وأن أمهل الكافرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم في تدبير الله المرسوم))[١].

ويقدم لنا القرآن الكريم حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ذلك أن مكر الكافرين بالسوء للنبي ﷺ وبالمؤمنين إنما دافعه الاستكبار في الأرض بيد أنه يحبط بمن دبره فيقع عليه وهذه الحقيقة متمثلة بقوله تعالى: { اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}[٢].

ثانياً

المكر المضاف إلى الله على سبيل المشاكلة

في البدء نود أن نقف على معنى المشاكلة في اللغة والاصطلاح فالجذر اللغوي (الشين والكاف واللام) ((معظم بابه المماثلة نقول هذا شكل هذا، أي مثله ومن ذلك يقال أمر مشكل، كما يقال أمر مشتبه أي هذا شابه هذا وهذا دخل في شكل هذا))[٣]. أما في الاصطلاح فالمشاكلة ((هي اتفاق الشيئين في الخاصة كما أن المشابهة البلاغية اتفاقها في الكيفية والمساواة اتفاقها في الكمية والمماثلة اتفاقها في النوعية، وقد يراد من المشاكلة التناسب المسمى بمراعاة النظير، أعني جمع أمر مع أمر يناسبه لا بتضاد، كما قال مصري لبغدادي خسنا خير من خسكم فقال البغدادي في جوابه خيارنا خير من خياركم ففيه التقابل بين الخس والخيار بوجه بأن يراد بالخس الخسيس وبالخيار خلاف الأشرار... ومجيء الكلام على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال فنٌ من كلامهم يسمى مشاكلة. وهي قسمان: تحقيقية

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٦٨٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) مقاييس اللغة: ٣/٢٠٤.

وتقديرية، فالتحقيقية: هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته [كقول أبي الرقمع](١).

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جُبةً وقميصا

وقوله تعالى: { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }(٢). والمشاكلة التقديرية: ((هي أن يكون فعل له لفظ دل عليه ولم يذكر فيذكر لفظ كلفظ الدال على ذلك الفعل كقوله تعالى: { صِبْغَةَ اللّهِ }(٣). ذكر لفظ الصبغ في صحبة فعلهم الذي هو الصبغ بماء المعمودية والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية أنه تطهير لهم فعبر عن الإيمان بصبغة الله أي تطهير بمشاكلة بهذه القرينة))(٤). ومن أمثلة المشاكلة في القرآن الكريم قوله تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}(٥). ((فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة والأصل جزاء سيئة عقوبة مثلها وقد استبدلت كلمة عقوبة بكلمة سيئة للمشاكلة كلمة سيئة في صدر الآية، ومثله قوله تعالى: { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }(٦). والأصل تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك فإن الحق تعالى وتقدس لا يستعمل في حقه لفظ للنفس إلا أنها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم بلفظ النفس))(٧).

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢، (١٣٧٩هـ-١٩٦٠م)، ص٣٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٤) الكليات: ٨٤٣-٨٤٤، وينظر: جواهر البلاغة، ص٣٧٥، البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب، د. كمال حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط٢ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ص٤٤٤-٤٤٥.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٦) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٧) البلاغة والتطبيق، ص٤٤٤.

ومجيء الكلام على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال من كلام العرب يسمى مشاكلة[١]. وهذا المعنى ينطبق على عدد من الآيات التي ورد فيها لفظ المكر مسنداً إلى لفظ الجلالة أو مضافاً إليه على سبيل المشاكلة لمكر الكافرين لأن المكر لا يليق بالله عز وجل فالأصل هو التدبير ومن ذلك قوله تعالى: { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[٢]. التي مر تفسيرها في قصة عيسى عليه السلام ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }[٣].

فالمكر الذي بيته النفر من ثمود هو تحالفهم أي يبيتون صالحاً ((وتقتلونه وأهله في بياتهم ثم يمكرون عند أولياء صالح أنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله، ويحلفون أنهم لصادقون فهذا مكر عزموا عليه... فمضوا لبغيتهم فأرسل الله عليهم صخرة فدمرتهم، وأرسل على باقي قومهم ما قتلهم به))[٤]. فذلك هو مكر الله الذي عبر عنه بلفظ المكر مشاكلةً للفظ مكر النفر الذي عبر عن محاولة قتلهم صالحاً. ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ }[٥]. فمكر الكافرين في هذا الموضوع هو استهزاء وتكذيب كما قال مجاهد[٦]: ((فالآية تشير إلى ما أصاب قريشاً من القحط سبع سنين بدعاء النبي ﷺ ثم كشف الله عنهم القحط وأنزل عليهم المطر فلما حبوا طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدون له... والمكر حقيقته إخفاء الإضرار وإبرازه في صورة المسالمة... ومعنى مكرهم في الآيات أنهم يمكرون مكراً يتعلق بها وذلك أنهم يوهون أن آيات القرآن غير دالة على صدق

---

(١) ينظر: الكليات/٨٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٠.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبدة شلبي، دار الحديث، القاهرة (١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م): ٩٤/٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٢١.

(٦) ينظر: معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس، (ت ٣٣٨هـ)، تحـ: (الشيخ محمد علي الصابوني، مركز إحياء التحاث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، جامعة أُم القرى، ج٣/٢٨٥.

الرسول ويزعمون أنه لو أُنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك وإنما هم يكذبونه عناداً ومكابرة وحفاظاً على دينهم في الشرك ولما كان الكلام متضمناً التعريض بإنذارهم، أمر الرسول أن يعظهم بأن الله أسرع مكراً... والمعنى أن الله أعجل مكراً بكم منكم بمكركم بآيات الله... وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر وحسنته المشاكلة))(١).

ومن الآيات التي أُضيف فيها لفظ المكر إلى لفظ الجلالة قوله تعالى: { أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }(٢).

فمكر الله كما قال البيضاوي: ((استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب))(٣). ورجح القاضي شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩) أن مكر الله محمول على الملاطفة فتتم وجوه الإرشاد والحمل على ترك الكفر حتى يكون الكفر حينئذٍ أزيد في القبح والشناعة حيث قطع دابرهم لأجله وحمد عليه. والأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية وهو الاسترسال في المعاصي إشكالاً على عفو الله، وقال الحنفية: إنه كفر كاليئس لقوله تعالى: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }(٤).

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود ﷺ من الكبائر الأمن من مكر الله وما ورد من أنه كفر محمول على التغليظ(٥). والأولى حمله على أنه كبيرة على رأي الشافعية ومن الآيات التي عبر فيها عن علم الله وإحاطته بكل شيء مما يعمل

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣٢/١١-١٣٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٣٣٣/٤. شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٦٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٥) حاشية الشهاب: ٣٣٣/٤.

الكفار كقوله تعالى: { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ }(١).

فالمعنى صنع الذين من قبلهم كصنيع أهل مكة بمحمد ﷺ فالله يجازيهم جزاء مكرهم وينصر أنبيائه ويبطل مكر الكافرين(٢). ولما قال فلله المكر جميعاً يعني: ((أن مكر الماكرين مخلوق له فلا يمكر إلا بإرادته وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم كأن قيل قد فعل من قبلهم من الكفار مثل فعلهم فلا ضرر عليك من مكرهم))(٣).

ومن التناسب الملحوظ في الآية أنه ((لما كان المراد بالمكر إنما هو بعض الناس في بعض الزمان قال (من قبلهم) أي بالرسل وأتباعهم فكان مكرهم وبالاً عليهم، فطوى في هذه الجملة مكرهم الذي اجتمعوا عليه غير مرة وأتقنوه بزعمهم فكان سبب الرفعة للإسلام وأهله وذل الشرك وأهله، ودل على ذلك المطوي بواو العطف في قوله: (وقد) وطوى في الكلام السابق إهلاك الأُمم الماضية في الاستدلال على قدرته على الجزاء الذي هو روح الحساب ودل عليه بواو العطف في (أولم يروا)... فتأمل هذا الإبراز في قوالب الإعجاز. ولما كان ذلك كذلك تسبب عنه أن يقال: (فلله) أي الملك الأعظم المحيط علمه وقدرته خاصة (المكر جميعاً).

والمكر الفتل عن البُغية بطريق الحيلة، ويلزمه الستر... ولا شيء أستر على العباد من أفعاله تعالى. فلا طريق لهم إلى علمها إلا من جهته سبحانه، وسُمي فعله مكراً مجازاً لأنه ناشئ عن مكرهم جزاءً لهم))(٤).

ومن المفسرين من فسر إسناد المكر إلى الله عز وجل بأنه على سبيل الجزاء على من فعل ذلك بمثل فعله فهو عدل حسن لأن الجزاء من جنس العمل فالذي

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي: ١٩٧/٢.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي النيسابوري: ٢١/٣.

(٤) نظم الدرر: ١٦٣/٤.

مكر وكاد جزاؤه بمثل فعله[1]. وعلى هذا فإن ما فسر بأنه مجاز كلفظ المكر المضاف إلى الله سبحانه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز ليس كذلك بل هذا الاستعمال إذا فعل بمن لا يستحق العقوبة كان ظلماً له وأما إذا فعل بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كان عدلاً[2].

(1) ينظر: مجموعة الفتاوى، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨)، دار الوفاء، المنصورة، ط٢ (١٤٢١هـ-٢٠٠١م): ٢٠/٢٥٦.

(2) ينظر المصدر نفسه: ٧/٧٤-٧٥.

الخاتمة

الحمد لله أن مَنَّ علينا بالوصول إلى خاتمة البحث نعرض فيها أهم النتائج المستخلصة:

– ورود المكر بصيغة الفعل الماضي في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة. مما يتناسب مع مساحة وروده في قصص الأنبياء والذي يتناول قص أحداث ماضية سيقت للعبرة والعظة.

– ورود المكر بصيغة الفعل المضارع في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة أيضاً مما يشير إلى توازن مع عدد مرات ورود الماضي. وكان الفعل المضارع متسقاً مع عرض مكر الكافرين بالنبي محمد ﷺ والذي كان قائماً وقت تنزل القرآن، ومتسقاً أيضاً مع حكاية الحال الماضية في عدد من سياقات القصص القرآني.

– ورود المكر بصيغة المصدر في تسع عشرة مرة وهي أعلى نسبة ملحوظة مما يشير إلى تركيز القرآن على ذات الحدث نفسه ومعناه سواء أكان مسنداً إلى الكافرين وإلى أعداء الأنبياء أم كان مسنداً إلى الله سبحانه على سبيل المشاكلة.

– ورود المكر على صيغة اسم الفاعل مرتين فقط مسنداً لله سبحانه على سبيل المشاكلة مما يعني أن المكر المسند للبشر محدود بوقت زائل بزواله، في حين أن استدراج الله للكافرين ثابت مما يعطي اطمئناناً للمؤمنين.

– خلص التمهيد إلى أن المكر في اللغة دار على معنى الحيلة والخديعة في خفية وأنه في الاصطلاح يعني إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا وهذا هو مكر الله أما بمفهومه العام فهو يشير إلى أنه خداع وحيلة ينجزان من خلال فعل وعمل يقوم به الماكر.

– تبين أن المكر في قصة نوح دار على تزيين قوم نوح الكفر للناس وتحريضهم على الاستمساك بالأصنام لينقادوا إليهم ولإبقائهم على كفرهم وتحريشهم على أذى نوح وأتباعه.

– تبين أن مكر السحرة في قصة موسى على حد اعتقاد فرعون أنه صنيع من السحرة وموسى صفوة في المدينة فهو حيلة لإخراج القبط من مصر وإسكان بني إسرائيل.

كما ورد المكر في قصة مؤمن آل فرعون بمعنى ما يؤذيه به ويضره مما أرادوا به من الشر. أما المكر في قصة عيسى فهو دال على ما دبره اليهود لقتل عيسى عليه السلام، كما ورد ليدل على ما قذفوا به الطاهرة العذراء أُم عيسى واتهامه بالكذب والشعوذة والوشاية به إلى الحاكم الروماني. وورد المكر في قصة يوسف عليه السلام دالاً على مكر إخوة يوسف به ومراودة امرأة العزيز له ومكر النسوة وتواطؤهن معها.

– أما مكر الكافرين بالنبي ﷺ فكان دائراً على ما اجتمع عليه المشركون وبيتوه من قتله أو ما تعرض له من أصحاب العقائد المنحرفة أو ما مثلوا به في أجساد الشهداء يوم أُحد إلى غير ذلك من الأعمال التي قاموا بها للصد عن سبيل الله.

– وأما مكر الله فقد ذهب في بيانه المفسرون مذهبين الأول أنه استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، والثاني أنه على سبيل الجزاء على من فعل ذلك بمثل فعله فهو عدل حسن لأن الجزاء من جنس العمل فالذي مكر وكاد جزاؤه بمثل فعله. ولم يذكر لفظ الجزاء وذكر المكر على سبيل المشاكلة.

– بين البحث أن المشاكلة تحقيقية وتقديرية فالتحقيقية هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته كقوله تعالى: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك). والتقديرية أن يكون فعل له لفظ دل عليه ولم يذكر فيذكر لفظ كلفظ الدال على ذلك الفعل كقوله تعالى: (صبغة الله) ذكر لفظ الصبغ في صحبة فعلم الذي هو الصبغ بماء المعمودية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٢. أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٣. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٥هـ) تحـ: علي محمد معروفي، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، د. زكريا عبد المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٤. البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، د. كمال حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط٢ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٥. تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحـ: أحمد عبد الغفور عطار، ط٣ (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)، دار العلم للملايين.

٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، دار للنشر والتوزيع، تونس (د.ت).

٧. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري (ت ٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٦هـ-١٩٩٦، تحـ: الشيخ زكريا.

٨. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحـ: عبد السلام هارون، دار الصادق.

٩. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، ط٢ تحـ: أحمد عبد العليم البردوني ،دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٩٦٦م.

١٠. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢ (١٣٧٩هـ١٩٦٠م)، (د.ت).
١١. جواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٦هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.
١٢. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٦٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.
١٣. ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: د. عزة حسن، مكتبة دار الشروق – سوريا (د.ت).
١٤. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٥. زاد المسير في علم التفسير،أبو فرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت(٥٩٧)دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١(١٤١٤هـ– ١٩٩٤م)
١٦. زهرة التفاسير، محمد بن أبو زهرة المتوفى (١٣٩٤هـ–١٩٧٤م)، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٧. عمدة الحافظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحـ: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٧هـ–١٩٩٦م).
١٨. الفائق في غريب الحديث والأثر، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحـ: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ١٩٤٧م.

١٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، (ت ١٢٥٠هـ) تحـ: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١ (١٤١٥هـ–١٩٩٤م).

٢٠. الفروق اللغوية للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري (د.ت)، تحـ: أبي عمرو عماد زكي الباروني، (د.ت).

٢١. في ظلال القرآن، سيد قطب (ت ١٩٦٠م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٥ (١٣٨٦هـ–١٩٦٧م).

٢٢. الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحـ: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣ (١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م).

٢٣. الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي (ت ١٠٩٤)، تحـ: د. عدنان درويش المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢ (١٤١٩هـ–١٩٩٨م).

٢٤. لسان العرب، ابن منظور، (ت ٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٣ (١٤١٩هـ–١٩٩٩م).

٢٥. مجموعة الفتاوى، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن أحمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، دار الوفاء، المنصورة، ط٢ (١٤٢١هـ–٢٠٠١م).

٢٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧. معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط٣ (١٤٠٣هـ–١٩٨٣م).

٢٨. معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحـ: الشيخ محمد علي الصابوني، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١ (١٤٠٩هـ–١٩٨٨م)، جامعة أُم القرى.

٢٩. معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة (١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م)، (د.ت).

٣٠. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر.

٣١. نظم الدرر في تناسق الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

٣٢. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١